سورة البقرة
المحاضرة الثانية عشر

الآيات من 57 : 61

إن الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِالله مِنْ شُرُورِ أنفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا مَنْ يَهْدِهِ الله فَلا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ وَأَشْهَدُ أن لا إِلَهَ إِلا الله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وبعد..

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ ﷺ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار..

" وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57) "

- الآيات تحدثت عن الغمام ونزول المن والسلوى واستسقاء موسى لقومه وخروج الماء وكل هذا وقع لبني إسرائيل في فترة (التيه) والتي جاءت عقابًا لهم بعدما أمر الله عز وجل موسى عليه السلام وقومه بدخول الأرض المقدسة وجهاد القوم الجبارين الذين كانوا فيها(القصة وردت في سورة المائدة) إلا أنهم ردوا الأمر ورفضوا الجهاد.

(ظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ): وَالْغَمَامُ جَمْعُ غَمَامَةٍ، وَالْغَمَامُ هُوَ مَا غَمَّ السَّمَاءَ مِنْ سَحَابٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

ومعنى ظللنا عليكم الغمام: أي أرسلنا السحاب يظلكم من حر الشمس لأنكم في التيه(صحراء جرداء) ليس فيها أي شيء يحجب عنهم حر الشمس الذي يمكن أن يُميتهم.

🔴 وهنا وقفة: فمع شدة العصيان والعناد وكفران النعمة وعدم الشكر من هؤلاء ورفضهم أن يدخلوا الأرض المقدسة للجهاد فيها كتب عليهم ربهم دخول التيه عقابًا لهم ولكن الله عز وجل بالرغم من فرضه عليهم دخول التيه كعقوبة لهم إلا أنه أنزل عليهم المن والسلوى، كيف يكون العقاب والإكرام في نفس الوقت؟ لا يكون هذا إلا إذا كان من الرحمن الرحيم الكريم المنان، لقد كان الحر شديد في الصحراء وهم في فترة عقاب إلا أنه سبحانه وتعالى من رحمته بهم أن أرسل السحاب وهم في أشد الحاجة إلى ما يستظلون به فغطى به حر الشمس وحجبه عنهم كي يستطيعوا العيش وإلا كانوا سيموتون فالحرارة مستمرة، فكان من لطف الله ورحمته بهم ونعمته عليهم أن جعل لهم سحابًا فوق رؤوسهم ليحجب عنهم حرارة الشمس رغم أنهم معاقبون.

(وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ):

*** ٱلسَّلْوَىٰ: هو طائر السُّمَاني وهو طائر لحمه شهي ولبيضه فوائد عظيمة يمتاز بها عن بيض أي طائر آخر(فهو يجمع بين اللحم شهي واستفادة الجسم)، وكان الحق سبحانه قادرًا على أن يُنزل أي نوع آخر من أنواع الطيور ولكنه أنزل عليهم أفضل أنواعها (وتلك نعمة أخرى والحديث في سياق تعداد النعم على بني إسرائيل).**

*** ٱلْمَنَّ : اختلف فيه العلماء :**

منهم مَن قال أنه شراب مذاقه حلو كالعسل، ومنهم مَن قال :أنه الزنجبيل، قيل في ذلك أقوال كثيرة.

ولكن أرجحها :أنه اسم لكل رزق حسن من الطعام والشراب.

فلماذا رُجحَ هذا القول؟

- عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الكَمْأَةُ مِنَ المَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءُ العَيْنِ» [أخرجه البخاري(4639)،أخرجه مسلم(2049)].

- قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْكَمْأَةُ مِنَ الْمَنِّ الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ» [أخرجه مسلم(2049)]

- فما معنى الكمأة؟ هو نبات لا ساق له ولا ورق ولا يرعاه أحد ولكنه ينبت بعلم الله وإذنه.

⛔ ومن الألفاظ التي تُخالف العقيدة: كلمة يقولها العوام عن بعض النباتات من غير إدراك منهم أنها تُمثل خطأً في العقيدة (طلع شيطاني) لأن الشياطين لا تُنبت، فالله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الخلق وقدر الأقدار والأرزاق، وجعل بعض النباتات تنبت بهذا الوصف لبيان عِظم قدر الله.

- إذًا هذه الأحاديث تحمل الدليل على أن المن ليس شرابًا، وهذا ما جعل بعض العلماء يُرجحون هذا القول.

(كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ): كلوا من هذا الرزق الطيب الحسن الذي امتنّ الله تعالى عليكم به.

انظروا كيف كان فضل الله عليهم بالرغم من عنادهم وعدم طاعتهم لأمره سبحانه: فهؤلاء لم يجتهدوا في تحصيل هذا الرزق؛ فالسلوى كان طيرٌ يطير في السماء فوجدوه فوق رؤوسهم فاصطادوه، وأما المن فهو الرزق الحسن ومنه الكمأة وهو نبات في الأرض وبالتالي لم يبذلوا جهدًا لنيله، وبالتالي فإن هؤلاء لم يأخذوا بأسباب السعي في الرزق.

● في هذه الآية يقول الحق سبحانه (الْمَنَّ وَالسَّلْوَى) أي أن الآية تُشير إلى نوعان من الطعام في حين أنه في آيةٍ أخرى يقول سبحانه {وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ...(61)} (البقرة) وفي هذا إشارة إلى اعتراضهم وهو دأب اليهود ولكن هذا الاعتراض جاء هذه المرة على نوع الطعام الواحد فلن يصبروا عليه، فكيف يمكن الجمع بين هاتين الآيتين؟

- للعلماء في هذا الأمر أقوال منها:

1- منهم مَن قال أن المن هو نوع من الشراب وبالتالي يكون المنصوص عليه في الآيتين هو نوع واحد من الطعام.

2- ومنهم مَن قال أن ما يُوضع على مائدة العرب من صنوف الطعام يطلق عليه طعام، فهم يسمون ما اجتمع على المائدة الواحدة من أنواع الطعام المختلفة بالطعام الواحد.

3- وقيل أيضًا: أنه سُمي بالطعام الواحد لأنهم كل يوم يأكلون من نفس الشيء.

هذه توجيهات كلها ممكنة وإن كان أقربها هو القول الثاني أي ما اجتمع على المائدة الواحدة من أصناف الطعام يسمى بالطعام الواحد.

(وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ): فما هو موضع هذه الجملة والحديث في سياق تعداد النعم ؟ أو ما هو موضع الظلم هنا؟

قول العلماء فيها: أن هذا الجزء من الآية قيل من باب الفزلكة

- ما معنى الفزلكة ؟ هي كلمة محمودة وليست مذمومة كما يظن البعض، فإذا ما أراد أحد ما أن يعطي ملخصًا لأعمال كثيرة سبق له القيام بها (تلخيص ما قام به في كلماتٍ قليلة) فإن هذا يُقال عنه أنه أتى بفزلكة عظيمة شرط أن يأتي بالمعنى كاملًا لأنه من الممكن أن يُحْدِث التلخيص نقصا في المعنى فيكون اختصارًا مُخِلًا.

- لقد ذكر الله سبحانه قبل ذلك وفي سياق الكلام عن بني إسرائيل أنهم قوم ظالمون معتدون، دائمًا ما يعترضون / أما هنا فإن الكلام في سياق تعداد النعم وبالرغم من ذلك أراد الله أن يُذكرهم بأنهم ببغيهم وطغيانهم هم ظالمون لأنفسهم ولكن دون أن يُعِدْ ما سبق ذكره فجاء بهذه الجملة (فزلكة) لما سبق منهم من تعدٍ وبغي واعتراض وتكبر على أوامره سبحانه، ولهذا فإنها تعد إيجازًا لما سبق تفصيله (وتلك هي عظمة القرآن).

قال سبحانه: (وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ) ثم قال (وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ) فانتقل الكلام من خطاب بني إسرائيل إلى خطاب الغيبة؛ أي أنه عدل عن الخطاب المباشر إلى الخطاب غير المباشر فلماذا؟

- هذا من باب الوعظ والتخويف للجميع، وأيضًا لبيان الحكم على بني إسرائيل فما هو هذا الحكم؟ شدة ظلم هؤلاء لأنفسهم جعلتهم لا يستجيبون للنصح ولا ينزجروا، فهناك بعض البشر مَن هو صعب الشكيمة فلا المعروف يُجدي معه ولا الشدة، فهو لا يستجيب لأحد بأي حال، فمثل هؤلاء يوجد منهم الكثيرون بيننا بل أن الكثير من المسلمين المعرضين عن دين الله هذا هو حالهم (حال بني إسرائيل)

- فلننتبه نحن المسلمون ولا نعتقد أن مثل هذه الآيات من القرآن هي خاصة ببني إسرائيل، لأن القصص التي ذكرت بني إسرائيل إنما جاء ذكرها في القرآن خطابًا من الرب تبارك وتعالى للمسلمين، لماذا؟ لسببين:

أولًا: حتى يتعظوا وينتبهوا أنه ربما يقع فيهم مثلما حدث ووقع لليهود.

ثانيًا: هو لبيان مدى شدة هؤلاء القوم؛ فقد كانوا قومًا شدادًا لم يُجدِ معهم الإكرام :-

أ- أنقذهم من فرعون وجنوده وأغرق هذا الطاغية الظالم أمام أعينهم (الإنسان عندما يظلمه أحد ثم ينتقم الله من هذا الظالم أمام عينيه يُكون في هذا شفاءٌ لصدره) فأشفى الله صدورهم بغرق هذا الفرعون فما كان منهم مباشرة إلا أن قالوا: {قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ(138)} (الأعراف)

ب- وحين عاد من لقاء ربه حاملًا الألواح وجدهم قد اتخذوا من العجل إلهًا لهم، فلما تاب عليهم بقتل أنفسهم جادلوه فيما كانت تحمله الألواح من أوامر الرب سبحانه.

ج- وحين أختار منهم سبعين رجلًا وذهب بهم ليعتذروا لربهم مما فعلوه لم يكن منهم أن قالوا:{وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (55)}(البقرة)

د- ثم إذا ما أخذتهم الصاعقة تضرع موسى لربه بالدعاء فأحياهم ربهم بعدما أماتهم ومع ذلك لم يُثمر هذا أي فائدة.

- انظروا: كيف كان الأمر مع هؤلاء الذين قست قلوبهم، كانت تأتيهم العقوبة ويتبعها شيء من الترغيب، عقوبة ويتبعها شيء من الإكرام وهكذا ولكن لا فائدة (لقد أعطي هؤلاء صنوف النعم ونزلت عليهم صنوف العذاب ولا جدوى).

_فأراد الحق سبحانه أن يبين إلى أي درجة وصلت شدة قلوب القوم فلا العذاب ولا النِعَم ولا الوعظ نفع معهم، فاتعظ يا صاحب العقل ولا تكن مثل هؤلاء لأنه يوجد اليوم أناس من المسلمين كثيرون مثل هؤلاء (فمَن يتحدث معهم بالرفق واللين لا يجد منهم آذان صاغية، ومَن يتحدث معهم بالشدة والتذكير بمآلات الأمور ينفرون منه ولا يلتفتون إليه).

(وَمَا ظَلَمُونَا):

سجل عليهم جهلهم مع تسجيل قلة شكرهم، فأفعالكم الشنيعة التي ارتكبتموها لم تظلموا بها ربكم ولكنكم صنف قليل الشكر لا ينفع معكم شيء.

(وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ):

- كلمة(وَمَا ظَلَمُونَا): نفي، (وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ): إثبات والعلماء يقولون: إذا جُمع بين النفي والإثبات يتم المعنى والتأكيد..

مثلًا: قول لا إله إلا الله : تجمع بين النفي والإثبات:

(لا إله): نفي. (إلا الله): إثبات.

قيل لماذا يجمع بين النفي والإثبات في كلمة الشهادة؟

لأن الإثبات إذا سبقه نفي يكون في ذلك تأكيد للمعنى، فإذا قيل(لا إله): هنا نفي لكل الآلهة، وإذا قيل(إلا الله): هنا تأكيد على أنه هو الواحد الأحد، وهكذا تكون الكلمة بهذا الشكل أقوى من قول (الله الواحد الأحد).

- ومع هذا التأكيد - بالنفي والإثبات- في الآية جاء أسلوب توكيد آخر وهو تقديم المفعول؛ فلم يقل(كانوا يظلمون أنفسهم) بل قال (كانوا أنفسهم يظلمون) وفي هذا زيادة التأكيد والحصر والقصر.

سؤال: لماذا ورد هذا التأكيد العظيم من الله عز وجل؟

لأن الإنسان الجاهل عدو نفسه يفعل بنفسه الأفاعيل السيئة والآثمة ويجلب على نفسه من المضار ما لا يستطيع أن يجلبها عليه عدوه.

" وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ (58) "

(وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ):

أمرهم الملك سبحانه وتعالى بدخول القرية وفتح (بيت المقدس).

(ٱدْخُلُواْ): فعل أمر؛ أمرهم الله عز وجل بدخولها للجهاد، فهل الأمر بالجهاد هنا أمر شرعي أم أمر كوني؟

هذا الأمر شرعي وكوني في آنٍ واحد لأن الداخل سيجاهد تنفيذًا لأمر الله وهذا أمر شرعي ثم أن هذا الدخول مُقَدَّر منذ خمسين ألف عام قبل أن يخلق الله السماوات والأرض.

(هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ):

المقصود الأرض المقدسة وهذا ما قال به جماهير أهل العلم قال سبحانه:{يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ(21)}(المائدة)، ففسرت آية المائدة ما ورد في آية البقرة.

والقرية مأخوذة من القري: وهو التجمع، فأي تجمع للناس يُقال عنه قري، ولكن معناها عند العوام هي :البلد الصغير، أما المدينة فهي: البلد الكبير، وهذا الكلام وإن كان مُتداولًا بين العوام إلا أنه لغةً ليس صحيحًا.

فالقرية تُقال للبلد الكبير والبلد الصغير أيضًا، قال الله تبارك وتعالى عن(مكة) أنها أم القرى{وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَآ...(92)}(الأنعام)، وفي نفس الوقت قال سبحانه:{وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَـٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (13)}(محمد) إذًا هناك قرى هي أكبر من أم القرى(مكة) وبالتالي يمكن أن يُطلق لفظ قرية على البلد الكبير وكذا البلد الصغير أيضًا.

(فَكُلُواْ):

فعل أمر ولكن هل هو أمر إيجاب أم استحباب؟ الأمر هنا ليس إيجابًا ولا استحبابًا ولكنه مباح مثل قوله تعالى (وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ).

(فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا):

الأمر هنا للإباحة فيجوز لهم الأكل والشراب في أي مكان في القرية كما أنه يُمكنهم البيع والشراء فيها كيفما أرادوا وهذا يعني أنه سيأتيهم الخير.

(رَغَدًا): واسعًا هنيئًا، وفي حالة من الطمأنينة ولن تُمنعوا من هذا الخير لأنكم نصرتم دين الله وامتثلتم لأوامره.

(وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا): فأي بابٍ هذا؟ باب القرية.

(سُجَّدًا): وهنا تكمن إشكالية تحتاج وقفة فلماذا؟ ابتداءً: لقد أمرهم ربهم سبحانه بدخول القرية التي يسكنها العماليق الظلمة والقيام بتطهيرها منهم ثم بعد ذلك العمل على نشر شريعة موسى عليه السلام فما كان منهم إلا العصيان والرفض لأوامر الله سبحانه.

- ولكن ما المقصود بالسجود هنا هل هو الخضوع لله أم أن هناك مقصد آخر؟

1- ذهب فريق من العلماء إلى القول بأن المقصود بالسجود هو الخضوع لله عز وجل(أي:خاضعين لله) ودليلهم في هذا القول: قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩(18)}(الحج) فقالوا أن السجود هنا ليس سجودًا حقيقيًا أي على الحقيقة ولكن المقصود هو الخضوع !

- وهذا القول نعترض عليه، لماذا؟ : لأن السجود هنا سجود على الحقيقة والدليل يأتينا من السنة وهذا جائز لأن القرآن كما يُفسر بالقرآن يفسر أيضًا بالسنة:

_عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لِأَبِي ذَرٍّ حِينَ غَرَبَتِ الشَّمْسُ: «أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟»، قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: " فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ العَرْشِ، فَتَسْتَأْذِنَ فَيُؤْذَنُ لَهَا وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ، فَلاَ يُقْبَلَ مِنْهَا، وَتَسْتَأْذِنَ فَلاَ يُؤْذَنَ لَهَا يُقَالُ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ} [يس: 38] [أخرجه البخاري(3199)]

- إذًا السجود هنا هو سجود على الحقيقة وإن كنَّا لا نعلم كيفية سجود المخلوقات إلا أنها تسجد للخالق سجودًا حقيقيًا.

2- من الأقوال التي ذُكرت أيضًا: أن المقصود بالسجود هو : الركوع واستدلوا بقوله سبحانه:{وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ...(100)}(يوسف) فركع أَبَوَا يوسف وإخوته له.

– يُعترض على هذا القول أيضًا: لقد سجد أَبَوَا يوسف وإخوته له سجودًا حقيقيًا لماذا؟ لأن كلمة (خَرُّوا) تعني سقط على الأرض وبالتالي لا تأتي مع الركوع.
- لقد أراد بعض المفسرين الهروب من القول بسجود إخوة يوسف وأبويه له لأنهم يقولون بأن السجود لا يكون إلا لله.

- الرد: لقد كان هذا في شريعة يوسف عليه السلام ثم نُسخ في شريعة محمدﷺ فلا إشكال في ذلك، ثم أن هذا السجود لم يكن سجود عبادة ولكنه كان من قبيل التحية والتعظيم والتشريف، أي أن سجودهم كان سجودًا حقيقيًا فنزلوا على الأرض وسجدوا له وهكذا قالت الآية (وَخَرُّوا) وفي أصول الفقه: يُقدم الظاهر على المؤول والكلمة واضحة ولا تأتي مع الركوع.

- أما في شرعنا الآن فلا يجوز السجود تحية لأحد، كما لا يجوز حتى الانحناء في التحية لأن الانحناء نوع من التعظيم وهذا لا يكون إلا لله عز وجل، نعم كان في الشرائع السابقة ولكنه نُسخ بشريعة محمدﷺ.

(وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا): أصبح الدخول وهم ساجدون أمر حتميًا فقد فُرِض عليهم ولكن هناك إشكالية في الأمر لأن السجود يعني: الثبات والاستقرار بينما الدخول يعني: الحركة والانتقال فكيف يتسنى لهم الجمع بين هذا وذاك؟

_قيل: أن الحال تارة يكون مقارن للفعل وتارة يكون مُتأخر عنه، فالسجود حال الدخول ممتنع؛ لأن الجمع بين الحركة والثبات في وقتٍ واحد غير ممكن، وبالتالي يمكن أن يتأخر الفعل عن الحال، فيكون المعنى: أنكم إذا دخلتم القرية وانتصرتم بفضل الله وتمكنتم من هذا الأمر فخروا لله سجدًا وذلك شكرًا لنعمته التي أنعم بها عليكم.

(وَقُولُواْ حِطَّةٌ):

أصل كلمة (الحط): النزول، يقال: حط الراحلة: أي أنزلها، فقال : قولوا يارب حط عنَّا خطايانا فاغفر لنا هذه الخطايا الشنيعة التي ارتكبناها في حق أنفسنا وتعدينا بها الحدود والأوامر، فلو أنكم دخلتم القرية وشكرتم على هذا العطاء ثم طلبتم من الله سبحانه المغفرة وأن يحُط عنكم خطاياكم لأعطاكم لأنكم ستكونوا من المحسنين.

_ولكنهم لم يستجيبوا لما أُمِروا به، هؤلاء هم بنو إسرائيل وتلك حالهم، فدخلوا يَزْحَفُونَ علَى أَسْتَاهِهِمْ (مؤَخِّراتِهم) ولم يسجدوا وكانوا يقولون حطةٌ في شعيرة (حبة في شعيرة) أي نريد أن نأكل الشعير فاستبدلوا أمر الله بكلام لا معنى له.

(نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡ):

أي سنغفر الخطيئة، والخطيئة ليست بمعنى الخطأ لأن الخطيئة هي ارتكاب الذنب عن عمد، أما الخطأ: فهو الوقوع في الذنب من باب النسيان أو الجهل، ولهذا فإن الخطأ يكون أقرب للعفو عنه ولا يؤاخذ العبد به، قال تعالى {رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ...(286)} (البقرة)

_عَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ، وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ» [سنن ابن ماجة(2043)]

_إذًا الخاطئ ملوم والمخطئ معذور لماذا؟ لأن الخاطئ يعلم أن ما يرتكبه خطيئة وبالرغم من ذلك يرتكبها تعمدًا ولهذا فإنه يحتاج لتوبة واستغفار(ملوم)، أما المخطئ فإنه معذور لأنه لم يتعمد ارتكاب الذنب.

(وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ): فإذا طلبتم من ربكم أن يغفر لكم ذنوبكم الكثيرة فإنه سيغفر لكم وبعد المغفرة سيُعطيكم المزيد من العطاء والإكرام رغم كل ما ارتكبتموه من الذنوب والمعاصي.

_ ومع كل ما فعلوه وعدهم ربهم بالمغفرة والإكرام والزيادة للمحسنين شرط أن يطلبوا منه مغفرة الذنوب ولكنهم رفضوا كل هذا وما كان منهم إلا أن بدلوا أوامر الله.

" فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ (59) "

(فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ):

- وهل ما بدله الذين ظلموا هو القول أم غير القول؟ أي هل بدل هؤلاء ما قيل لهم أم بدلوا غير ما قيل لهم؟

- لقد بدلوا ما قيل لهم، فلماذا قال ربنا سبحانه (غير الذي قيل لهم)؟

جاءت (بدل) هنا بمعنى (قالوا)، فلو قيل: فقال الذين ظلموا قولًا غير الذي قيل لهم لاستقام المعنى، ولكن ما زال السؤال مطروحًا: لماذا قال(فبدل)؟

_ذُكرت (فبدل) هنا من أجل أن يُسجل عليهم شدة العناد والإصرار على المخالفة وإلا معنى بدل بمعنى قال وهذا يأتي في اللغة.

_(فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ) حيث أنه سبحانه قال(قولوا حطة) فقالوا(حبة في شعيرة) فبدلوا قولًا بقول، قال(فبدل): ليسجل عليهم تلك المخالفة المقصودة المتعمدة لأن الكلام كان واضحًا، وفرق بين قول حطة وقول حبة في شعيرة كما أنها لا مجال لها في سياق الكلام، إذًا هناك قصد للمخالفة والتكبر والاستهانة بأوامر الله سبحانه وهذا بدوره يدل على استغنائكم عن المغفرة.

الخلاصة: أن كلمة بدل جمعت بين أمرين:
- عبّر بها أو استعملها الحق سبحانه مكان كلمة (فقال) وهي بمعناها، وسجل عليهم شدة العناد والاصرار على المخالفة.

ملحوظة: يجوز قول عبر أو استعمل مع الله سبحانه إذا كنَّا في مجال الإخبار عنه سبحانه.

(ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ): إظهار في موضع الإضمار، فأظهر في موضع المضمر، فكان من الممكن أن يقول سبحانه (فبدلتم قولًا غير الذي قيل لكم) أو (فبدلوا قولًا غير الذي قيل لهم).

فوائد الإظهار في موضع الإضمار:-

1_تحقيق اتصاف محل المضمر بهذا الوصف وهذا الحكم : وهنا المضمر هو(الضمير المقدر في فبدلتم أو فبدلوا) ولكنه أظهره بقوله سبحانه(الذين ظلموا) فأظهره كي يؤكد هذا الحكم وهذا الوصف محل المضمر، فيكون المقصود يا مَن بدلتم أنتم ظالمون لأنفسكم.

2_تعميم الحكم بعلة الوصف : والمقصود بهذا أن الكلام ليس لبني إسرائيل فقط، فكل مَن بدل كلام الله وكل مَن خالف أوامر الله وكل مَن استهان بأوامر الله ولم يستجب لها هو من الظالمين.

_لماذا حكم عليهم ربهم بأنهم ظالمين ؟ السبب في ذلك هو ما فعلوه من الاعتراض على أوامر الله وعدم الاستجابة لها، وهكذا فالحكم هو أنهم ظالمون والوصف أنهم معترضون ومبدلون لأوامر الله والتعميم يعني أن كل مَن فعل فعلهم سواء من بني إسرائيل أو من غيرهم فإنه يخضع لهذا الحكم.

هذه القاعدة تشمل كل آيات الكتاب العزيز فكل آية ورد فيها تجريم فعل ما والحكم على مَن فعله لا يقتصر حكمها على فئة بعينها ولا عن مَن خاطبهم الحق سبحانه فيها ولكن يشمل كل مَن وقع منه هذا الفعل.

فكيف كان التبديل هنا؟

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: {ادْخُلُوا البَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ}[البقرة: 58] فَبَدَّلُوا، فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ، وَقَالُوا: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ " [أخرجه البخاري(3403)،أخرجه مسلم(3015)]

_أي أنهم بدلوا أمر الله لهم بالسجود وجعلوه أمر بالطعام والشراب وبذلك يكونوا قد حرفوا الكلم عن مواضعه.

" وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ (60) "

استسقاء موسى عليه السلام لقومه أيضًا كان في فترة التيه، فبعدما ظلل عليهم ربهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى طلبوا من موسى أن يسأل ربه أن يُنزل عليهم الماء، ولكن هذا الطلب لم يُذكر في الآية (باب الحذف في القرآن) لأن الكلام مفهوم من السياق.

(فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ):

هنا أيضًا حذف: حيث لم يُذكر الخبر
(فقلنا اضرب (فضرب موسى بعصاه الحجر) فانفجرت) وهذا واضح من سياق الكلام (إذًا الاختصار يُعطي بلاغة في المعنى فإذا كان المعنى واضح فلا داعي لإطالة الكلام حتى لا يحدث عند المتلقي سآمة وملل)
_والاستسقاء يكون مع انعدام الماء وحبس القطر، كما أن انعدام الماء وحبس القطر هما دليل غضب يحتاج إلى ظهور عبودية وافتقار وذل وخشوع لله سبحانه.

_فَبَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ عَلَى المِنْبَرِ يَوْمَ الجُمُعَةِ قَامَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلَكَ المَالُ، وَجَاعَ العِيَالُ، فَادْعُ اللَّهَ لَنَا أَنْ يَسْقِيَنَا، قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَيْهِ وَمَا فِي السَّمَاءِ قَزَعَةٌ، قَالَ: فَثَارَ سَحَابٌ أَمْثَالُ الجِبَالِ، ثُمَّ لَمْ يَنْزِلْ عَنْ مِنْبَرِهِ حَتَّى رَأَيْتُ المَطَرَ يَتَحَادَرُ عَلَى لِحْيَتِهِ، قَالَ: فَمُطِرْنَا يَوْمَنَا ذَلِكَ، .... وَالَّذِي يَلِيهِ إِلَى الجُمُعَةِ الأُخْرَى ....>>

[أخرجه البخاري(1033)]

- لقد خرج النبيﷺ في حالة من الذل والخشوع والانكسار والافتقار وبيان العبودية لله سبحانه فطلب الاستسقاء.

- وموسى عليه السلام طلب من ربه أن ينزل الماء على قومه فأمره ربه بأن يضرب بعصاه الحجر ففعل موسى ما أُمِرَ به فخرج الماء (وهذا من باب الأخذ بالأسباب وإلا فما الذي يجعل الماء يخرج من الحجر إذا ما ضُرِب بالعصا)

(قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ):

(أُنَاسٍ) جمع لا واحد له مثل إنسان، وكان من نعم الله عندما استسقى موسى لقومه أن فجر الله تبارك وتعالى العيون لهم حتى يشربوا، وفي سورة الأعراف (فَٱنۢبَجَسَتۡ) والفرق بين الانبجاس والانفجار؟ انبجست: سال الماء، أما انفجرت: خرج الماء بقوة، ويمكن الجمع بينهما لأنهما تكملان بعضهما في المعنى.

(ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ): لماذا حُددت العيون بهذا العدد؟
لأن الأسباط كانوا اثنتي عشرة سبطًا (قبيلة) فكان من رحمة الله ونعمته بهم أن قسمها (الماء) عيونًا بينهم حتى يمنع التدافع والتقاتل والتضارب الذي كان سيحدث بينهم لو أنه أخرجه لهم وتركهم ليتقاسموها.

معجزة موسى عليه السلام كانت خروج الماء من الحجر أما معجزة النبي محمدﷺ كانت أعلى وأعظم لأن الماء كان يخرج من بين لحم ودم.

(كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ):

المقصود أن هذه النعم من طعامٍ وشراب لم تكن بحولكم وقوتكم ولكنها من رزق الله الذي تفضلً به عليكم.

(وَلَا تَعۡثَوۡاْ):

العث: هو شدة الفساد وأعلى أنواعه، وإذا كان العث هو الفساد فلماذا كرر المعنى بقوله(مفسدين)؟
جاء التكرار لتأكيد حالهم وبيان شدة انهماكهم في المعاصي وأيضًا لبيان أنهم لا فائدة منهم، ولكنه سبحانه خاطبهم بهذا الشكل لينتبهوا إلى ما آتاهم من نِعَم فلا يُقابلوها بالنكران والجحود بل كان عليهم أن يقابلوها بالعرفان والشكر، لأن الإنسان أحيانًا إذا كثرت عليه النعم فإنه ينسى الشكر وهذا هو أكثر حال المترفين {كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ (6) أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ (7)} (العلق) **فعندما يرى النعم قد يستغنى.**

ـ **ملحوظة**: كلما كان لدى الإنسان نقص وخلل في الإيمان فإنه مهما أُوتي من نِعَم لا يشكر ويجحد، سواء بعدم الشكر والجحود في التعامل مع الله عز وجل أو مع الناس، ونرى ذلك واضحًا في جحود حق الوالدين وعدم شكرهم على كل ما يقدموه للأبناء.

" وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيْرٌۚ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ (61) "

(وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ):

ما زالوا يعترضون ولكن هذه المرة لم يعترضوا على أوامر الله بل أنهم وصل بهم الأمر إلى الاعتراض على نِعَمه أيضًا فقالوا لن نصبر على نوع واحد من الطعام !

ـ **فماذا تريدون؟ (فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ):** وهذا يدل على سوء الأدب، فبدلًا من أن يقولوا اسأل لنا الله تبارك وتعالى العلي العظيم العزيز الحكيم القوي، قالوا (ربك) فهو رب موسى وليس ربهم فدلت اللفظة على إنكار/ جحود /عدم العرفان/ الاستهانة بجلال الله وعظمته.

(يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا)

لقد أرادوا أن يستبدلوا المن والسلوى بالعدس والفول والبصل والثوم !!

(أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ): هل تريدون استبدال ما رزقتم به من خير بهذه الأنواع من الطعام !

(بَقۡلِهَا): قيل أنه عشب، وقيل: نوع من البقول.

(وَقِثَّآئِهَا): الخيار

(وَفُومِهَا): قيل: حنطة، وقيل حبوب، وقيل: الثوم

(ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا): مصر لها وجهان:-

- اسم كل الأمصار (المكان على طرف البلد يُقال له مصر)
- وقيل: أنها مصر فرعون؛ أي بلدنا.

(وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ): أي ألزمتهم، فالضرب هنا إلزام.

(ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ): الذلة للظاهر، والمسكنة للباطن، فإلزموا الذل(الذل مظهر) فأصبحوا في حالة من الذل.
- فألزمهم الملك سبحانه هذا الهوان وهذا الذل في الظاهر والباطن؛ لأن النعمة قابلوها بالجحود والنكران وطلبوا صنوف من الطعام لا يطلبها عاقل بل لا يطلبها إلا باغٍ متعدٍ معاند لمجرد العناد، يُخالف من أجل المخالفة فقط.

(وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ): فرجع عليهم غضب من الله شديد.

(ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ): كلما تأتيهم آية يكفروا بها.

(وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ): بغير الحق هنا تأكيد، وليس معناها أنه بمفهوم المخالفة يمكن قتل النبي، ولكن المعنى أن: قتلكم للأنبياء ليس له معنى سوى أنكم طغاة بغاة كقوله تعالى: {قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ....(112)}(الأنبياء) فهو تأكيد أن حكم الله يكون بالحق وليس معناه أنه يمكن أن يحكم بالباطل أو بغير العدل، ويقتلون النبيين بغير الحق تأكيد لهذا الفعل الشنيع، والأنبياء لا يرتكبون الكبائر(عند أهل السنة والجماعة) وإذا أخطأوا فإن أخطاءهم لا تُذكر فلماذا قتلتموهم؟ هذا وإن دل على شيء فإنه يدل على سواد القلب وفساد العقل والاعتقاد.

(ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ): والعدوان هو أشد أنواع الظلم وقد وقع منهم أيضًا.

نكتفي بهذا القدر ونكمل في اللقاء القادم إن شاء الله..

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.